



أ.د. محمد الأمين مولاي إبراهيم.
مدير مدرسة الدكتوراه بكلية الآداب
والعلوم الإنسانية جامعة انواكشوط العصرية

السرديات التاريخية والرواية العربية:

السرديات النثرية ونقض أطروحة سوسيولوجيا الأدب

الأول، تحمل هذه التصورات رؤية وطراز الجيل الثاني³ من السريدين العرب من مدرسي السردية في الجامعات العربية، ومن تلذموا على الجيل المؤسس وانخرطوا في مشروعه العلمي وأسسوا لذواتهم خيارات منهجية، ومسارات علمية اختلفت من شخص لأخر، وتنوعت من مشغل لآخر؛ وهي تصورات تميزت في آرائها النقدية وأطروحتها العلمية من حاضنة علمية لأخرى. وقد ساهم هذا الجيل في العقدين الأولين من هذا القرن في توسيع قاعدة المشتغلين بالسرديات في البيئات العلمية العربية، بتخريجه لجيل ثالث من الباحثين السريدين الشباب المتخذين من السردية التطبيقية مشغلاً لبحوثهم وأطروحتهم في مدارس الدكتوراه ومراكم البحث بالجامعات العربية.

2.1.1. وقد اطلع الجيل الثاني من السريدين العرب - إلى جانب أساتذته - بمهماز علمية وتكوينية أساسية في البيئات العلمية التي ينتهيون إليها، ساهمات في تجذير السريديات العربية، بتعزيزهم للفضايا التي أثارها المؤسسوون، ومواجهة الأسئلة التي طرحتوا، فتعددت معهم الاختصاصات والمشاغل السردية، وتمايزت المركبات النظرية، وتنوعت المداخل النظرية التي يصدرون عنها، والخيارات المنهجية التي يختارون، ظهرت في السريديات العربية: سريديات شعرية وسرديات سميولوجية تفرع عن الشعرية فرع حصري وأخر توسيعي، وعن السميولوجية نموذج عاملٍ وأخر النصي. وقد كان للجدل

داخل وحدات التكوين العليا (الماستر، الدكتوراه) وحدات البحث ومخابره المتخصصة، جعلت قضايا النظرية الأدبية وأسئلة المنهج وأدواته تصبح موضوعا النقاش والسؤال؛ الشيء الذي ساهم في تراجع التصورات المدرسية والنظريات النقدية التقليدية، التي كانت سائدة في المقررات الجامعية، وخفة سطوة خطابها في المتداول المعرفي والعلمي القائم.

السرديات التاريخية ونقض أطروحة سوسيولوجيا الأدب:

أطروحة السردية النثرية

1.1. وقد أدى كل ذلك إلى نقض نظريات كانت محل نقاش، واحتفاء تصورات وآراء كانت قائمة، واستمرار اطروحات ومناهج كانت محل تطبيق واختبار، وظهور أخرىات قابلية للتطبيق ومنتجة للمعرفة، مما هو متداول في البحوث المنشورة في الدوريات العلمية والأطارات المناقشة في مدارس الدكتوراء، وفي الكتاب الجامعي، وأعمال الملقيات والمؤتمرات العلمية المتخصصة، وغيرها مما يدخلاليوم في دوائر التداول العلمي في البيئات العلمية العربية والأجنبية، ويتقاسمها الباحثون بدرجات من الاطلاع وبمستويات من التفاعل متفاوتة.

1.1.1. وفي إطار ترسیخ التصورات السردية المؤسسة التي اضطاع بها في السردیات العربية الجيل المؤسس،² ظهرت في بعض البيئات العلمية العربية تصورات نقديّة مؤكدة على المنهج التأسيسي، العام الذي سنه السرديون

0. يسعى هذا البحث في مقاصده البحثية والمنهجية إلى تقديم تصور نقدي لظهور الرواية العربية، يستند في مركزاته النظرية ومحدداته المنهجية إلى السردية التاريخية في نقضها للنظرية سوسيولوجيا الأدب، وتفسيرها لظهور الأنواع والأشكال الأدبية، متخدًا من أطروحة السردية النثوية في تفسير ظهور الأشكال السردية أطروحة للاختبار. وهي الأطروحة^١ التي سعت إلى توسيع المدارك النظرية والمنهجية للشعرية التاريخية في نصوصاتها النظرية والمنهجية لظهور الأنواع والأشكال الأدبية، وتخبر أدواتها وتطبيقاتها في تفسير ظهور الأشكال السردية عامة والرواية منها خاصة.

1.0. فقد أدى تراكم الوعي النقدي بالنظرية الأدبية، في الربع الأخير من القرن العشرين الحاصل في البيئات العلمية إلى تعدد في المداخل النظرية والمنهجية المؤخرة للأدب والمفسرة لظهور الأنواع الأدبية وأشكالها، كما ساهم النشاط البحثي والعلمي المتزايد في وحدات البحث ومخابرها في تنسيط دورة إنتاج المعرفة في الجامعات ومعاهد البحث العربية، وإن بشيء من التفاوت؛ وهو ما ساهم في تعزيز الوعي بالنظرية النقدية وتجذير تطبيقات منهجها في التجربة العربية، كان من نتائجه العلمية، تنشيط الحياة العلمية بمدارس الدكتوراه بالكليات ومراکز البحث العلمي بالجامعة؛ وهو ما خلق - مع الوقت - في بعض البيئات العلمية العربية دوافع من الحوار المعرفي والعلمي



المعرفي الذي عرفته صفحات الكتاب النقدي والجامعي، والنقاشات العلمية التي دارت في ساحات الدرس وداخل قاعات النقاش بالجامعة، أثرها الكبير في بروز تصورات نقية متعددة ومتنوعة، هي اليوم في البيئات العلمية العربية، مدار لحوار معرفي وعلمي بين المنشغلين بالسرديات وأصحاب هذه التصورات، ومحل للنقاش وللمساءلة في بحوث وأطروحات الجيل الثالث من الباحثين السرديين الشباب. ولئن أفرزت هذا الحوارات والنقاشات العديد من الآراء والتصورات النقدية والأطروحات، هي في عمومه اليوم المحتوى العلمي لأهم القضايا والأسئلة التي تطرحها السرديات العربية، فإننا سنكتفي هنا بعرض تصور من هذه التصورات المراجعة لنظرية الرواية عند لوسيان كولدمان؛ وهو طرح يناهض المرتكز السوسيولوجي الذي اعتمد عليه في تفسير ظهور الرواية والأشكال السردية، ويسائل الخلفيات النظرية المؤسسة لأطروحته في بنائها للمعرفة، ويختبر الأدوات المنهجية المنتجة له.

(الحكم والأمثال) والمولدة لقوة خطابه البلاغي (الخطب والكتابة الصحفية) والمنتجة لجمالية أشكال أنواعه الأدبية (القصيدة، الرواية، المسرحية).

1.3.1. فقد أدت التراكمات النثرية في الطبقة الدينية من القول في محافل التواصل في تراث الأمم إلى ظهور شكلين تعبيرييين هما شكل «الحكمة أو الحكم» و«المثل أو الأمثال» فكلاهما مثل شكلان تعبيريا لفظيا مدونا دون توقيع، صيغت من خلاله تجربة حياتية على لسان متلقي عام فاره حاذق، صاغ تجربة الحياة فاستقر معه الكلام «حكمة» تقال أو «مثلاً» يضرب.

2.3.1. وأدت التراكمات في الطبقة اللغوية الوسطى من الكلام إلى ظهور أشكال كتابة نثرية ذات كثافة بلاغية وحجاجية متفاوتة، هي «الرسالة» و«الخطبة» وغيرها من أشكال الكتابة النثرية البلاغية القديمة، و«المقالة» و«الخاطرة» وغيرها من أشكال الكتابة الصحفية الحديثة، التي اقتضتها مقامات الكتابة الصحفية، وأنجتها نثريات البلاغة الحديثة، كـ«الافتتاحية» و«العمود» و«الخبر» و«الحديث» و«المقابلة» و«التغريدة» و«التعليق» وفرضتها أوضاع التخاطب الجديد عبر وسائل النشر وقنوات البث ووسائل التواصل الاجتماعي، التي خلقت في العقد الأول من هذا القرن حيوية في الاتصال والتواصل أعطت الكلام دفقاً وللخطاب تدفقاً، جعلا القول في المستويين التواصلي والبلاغي النفعيين، نشطاً.. مولداً لنثريات من القول فصيحة وبليفة، حاملة لخطابات اجتماعية متعددة، لمن يمكن أن نسميه بـ«متكلمين كبار» قياساً على الناخبيين

الثقافية للمجتمعات في تعبيرها عن «الاجتماعي» و«الثقافي» و«الحضاري».

1.2.1. وهو مشغل يؤسس للقول إن ظهور الأشكال السردية عامة (رواية أو قصة أو أشكالاً سردية تراثية) ولidea تراكمات نثرية مولدة لخطاب السرد حاضنة له، ومحقة لسردية خطابه. فالبحث عن ظهور هذه الأشكال في ثقافة من الثقافات ومجتمع من المجتمعات - من هذا المنظور - هو بحث في طبقات لغة حية قادرة في تطويقها للنشر المرسل على إنتاج نثرية أدبية، محقة لجماليات سردية ممتعة ومؤنسة. ومن ثمة فالبحث عن العوامل المؤدية لظهور شكل من الأشكال السردية، ينبغي أن يبحث عنه في طبقات القول المولدة لتراثيات الكلام المرسل، في محافلها التواصلية وحواضنها اللغوية المطوعة للغة والمعبرة عن «الاجتماعي» و«الثقافي» في مجتمع من المجتمعات، ووصف التراكمات النثرية لهذه الطبقات في مستوياتها التواصلية والبلاغية والأدبية المولدة لأدبية الخطاب السردي.

هيمنة النثرية وظهور أشكال الكتابة:

التعبيرية والأدبية

3.1. والذي عليه سند القول هنا، أن الأشكال التعبيرية عامة - والأدبية منها خاصة - لا تظهر في مجتمع من المجتمعات اللغة والتواصل إلا في ظل هيمنة نثرية من القول في طبقة من طبقات الكلام المولدة للأشكال؛ وهو ما أدى - في تاريخ ثقافة الأمم وأدابها - إلى ظهور أشكال تعبيرية لكل طبقة من طبقات القول خبرتها اللغة، وكان لكل مجتمع لغة حظه من هذه الأشكال التعبيرية، المعززة لطاقته التعبيرية

السرديات النثرية: ظهور الروبية تحول في طبقات القول وتمايز لتراثاتها

2.1. يتأسس الطرح الذي نسعى لبسطه هنا، على مرتكز نceği نصي، يستند في مداخله النظرية وأدواته المنهجية إلى الشعرية (Poétique) في انطلاقها من «الأدبي» مجالاً للبحث وانشغالها بالأدبية موضوعاً للبحث، بكشفها لما به يكون النص الأدبي نصاً أدبياً من جهة، واحتلالها بالخطاب في وصفها لسردية الخطاب السردي، واكتشافها لماتي الحسن ومستويات الإمتناع والمؤانسة فيه من جهة ثانية. وهو تصور يفسر نشأة السرد وظهور أشكاله انطلاقاً من أطروحة «السرديات التاريخية» التخصص التقديي الدقيق من اختصاص السرديات، الذي يتخذ من تاريخ الخطاب السردي في ثقافة من الثقافات، ومجتمع من المجتمعات موضوعاً للبحث والدراسة، ومن ظهور الأشكال السردية فيه مشغلاً علمياً يتم فيه البحث عن نشأة خطاب السرد في الحواضن اللغوية والمحافل

تكثيفه؛ لا على المتغير الاجتماعي ذاته ولحظات تحوله.

النثرية العربية ونظام تبادل المواقع

2.2. ميز المنشغلون بدراسة السردية العربية بين مكونين من مكونات النثرية العربية هما: النثرية التراثية والنثرية الحديثة لكل منها أشكالها السردية، وتحدد النثرية هنا، كما أبنا عن ذلك أعلى بأنها « فعل الكتابة الحاصل بتطويع النثر العربي الفصيح لغرض كتابي إبداعي وفق شروط الإبانة العربية، وهي بهذا المعنى، فعل لغوی متتحقق وفق سياق محمد وعبر نسق لساني تميّز ومحدد، ومن هنا جاء شراء النثرية في اللسان العربي»⁷. ومن أهم الدراسات التي ربطت بين أشكال السردية العربية وتطور النثر العربي جهود كل من د. عبد الفتاح كيليطو في كتابه «المقامات»⁸ ود. عبد الله إبراهيم في كتابيه «السردية العربية»⁹ و«السردية العربية الحديثة»¹⁰ حيث بينت هذه الجهود تطور النثر العربي منذ عصوره القديمة، واحتضان النثرية العربية التراثية لأشكال من السرد التراثي في نهاية القرن التاسع عشر نتيجة لهيمنة الأنفاق اللسانية التراثية وأساليب إبانتها وبلاوغتها في القول، وهو الاحتضان الذي أظهر «هيمنة الذائق التقليدية وتقييظ أسلوب أدبي يندمج في سياق الامتنال لسطوة تلك الهيمنة»¹¹. وقد استمر تطوير هذا الخط من الكتابة السردية مع محاولات المصريين في بعث «المقامات» وتجذير كتابتها سردية، كما بين ذلك محمد يوسف نجم، حين «حاولوا بعث المقامات مجدداً (كما حاولوا بعث الشعر التقليدي) في «شوب قشيب لاعم روح العصر إلى حد كبير»¹². كما ظهر ذلك عند الموحلي في «حديث عيسى بن هشام» وحافظ إبراهيم في «ليالي

بداية السبعينيات من القرن العشرين، وتعدد أشكال كتابة النثرية الحديثة، إنما كان نتيجة لأنحسار النثرية العربية التراثية بأنساقها اللسانية النثرية وأساليب إبانتها وطرق تحقق مجازاتها في وجه مد النثرية العربية الحديثة وبلاوغتها «وتراجعتها إلى موقع خلفية، فرضها عليها مسار تحديث المجتمعات العربية، وموقع تعبيتها للأخر لاحقاً»⁵. فكان من نتائج ذلك على المستوى الأدبي، تراجع النثرية التراثية بأنساقها اللسانية وأشكال كتابتها إلى موقع خلفية في الإبداع والثقافة. وهي السمة الخطابية التي عرفتها النثرية العربية في المجتمعات العربية في أمكنة وأزمنة متفاوتة في تقادمها؛ إذ يمكن «أن نلاحظ هنا أن كلا من هذه المجتمعات العربية - وخلال فترة تحديتها - قد عرفت هذا الانزياح التراثي للنثرية التراثية إلى موقع خلفية، تاركة الموقع الأمامي لنثرية عربية حديثة، ومكتفية بدرجات من الحضور متفاوتة في النثرية الأدبية لهذه المجتمعات»⁶. هذا الانزياح على مستوى النثرية - هو الذي يفسر - في ظرنا - ظهور الأشكال السردية الحديثة في المجتمعات العربية؛ وخاصة الرواية منها، عبر زمنية متفاوتة، كما يفسر تأخر ظهورها في البعض الآخر، وهي الأشكال السردية التي بدأت في الظهور منذ بداية القرن العشرين في بعض هذه المجتمعات، نتيجة لهيمنة النثرية العربية الحديثة وتجذر أنساقها اللسانية والفكرية في هذه المجتمعات، وتراجع سلطة النثرية التراثية وأشكال كتابتها السردية. ومن هنا يمكن النظر إلى تاريخ ظهور الأشكال السردية في الإبداع العربي من هذا المنظور الذي يعود في تأريخه لأشكال الكتابة الإبداعية على اللغة وأنمط تطويق ثرها وصيغ تشكل كتابتها وطرائق إبانتها ومستوياتها ودرجة شعريتها، على المتغير اللغوي وطرائق تداوله في المجتمع ودرجات

البار، موععين على هذه الأشكال النثرية في مساحات المقروء، ومؤدين لها في مقامات المسماو.

3.3.1. وأدت التراكمات في الطبقة العليا إلى ظهور أنواع أدبية بأشكال كتابة متعددة، ذات كثافة شعرية متنوعة: منها الأشكال الشعرية، أو شكل الشعر (قصيدة العمود، القصيدة الحرفة، وقصيدة النثر) والأشكال السردية، أو شكل السرد (الأشكال السردية التراثية، القصة القصيرة، والرواية) والأشكال المسرحية، أو شكل المسرح (الأشكال المسرحية التراثية، المسرحية الحديثة) وهي أنواع أدبية اقتضتها مقامات كتابة أدبية، وليدة هيمنة نثرية أدبية حاملة لخطابات إبداعية لشعراء وأدباء ومسرحيين، مؤلفين لأعمال أدبية تنافسوا في مدارج شعريات القول ومرaci قصديات الدلالة المشكلة لجمليات القول الأدبي، والمتحقق لما به يكون القول أدباً، ولما به يكون النص تصاً أدبياً، ولما به تكون الأشكال التعبيرية أشكالاً أدبية.

السرديات النثرية وظهور الرواية العربية:

ظهور الرواية هيمنة لنثرية العربية وإنحسار لسلطة أخرى 1.2. ننطلق في تفسيرنا لظهور الرواية العربية من أطروحة السردية النثرية، التي بسطنا لها أعلى، ومؤداها أن أشكال الكتابة عامة؛ لا تظهر إلا في سياق هيمنة نثرية معينة؛ فتداول هذه النثرية بدرجات من التطوير ومستويات من التكيف، هو الذي يؤدي إلى ظهور أشكال كتابتها وتكرис سلطتها، وغياب - أو اختفاء - أشكال كتابة النثرية، التي قامت على أنقاضها. ذلك أنتنا - وكما أبناه في بحوث سابقة⁴ - نفترض أن هيمنة أشكال الكتابة السردية الحديثة على أشكال الكتابة الإبداعية العربية، إلى

4. تعرضاً لهذه الأطروحة في البحث المعنون بـ«الرواية العربية والنثرية العربية» الذي قدم في ندوة «نجيب محفوظ» القاهرة، 2006، على هاشم مؤتمر اتحاد العالم الأدباء والكتاب العرب، ونشر في مجلة الأتحاد، وأعيد نشره في حلية كلية الآداب، جامعة أوكلاهوما، العدد 12/ 2013.

5. محمد الأمين والد مواليد إبراهيم، بنياء الخطاب ولدانه في رواية التبر الم gio، مساعدة في الكشف عن خصوصية السرد الموريتاني، تقدم د. سعيد يقطن، المكتبة الأكاديمية، القاهرة 1999، ص. 58.

6. محمد الأمين والد مواليد إبراهيم، المعرفة التاريخية وادية الأدب الموريتاني: فراة لظهور الأنواع وأشكال، دار الأمين، القاهرة 2001، ص: 77.

7. عبد الفتاح كيليطو، المقامات، السرد والأنفاق التقليدية، ترجمة عبد الكبير الشقراني، دار توعلل، الدار البيضاء، 1993.

8. عبد الله إبراهيم، السردية العربية، بحث في البنية السردية الموروثة للكتابي العربي، المركب الثقافي العربي، بيروت، 1992.

9. عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة، تشكيل الخطاب الاستعاراتي وإعادة تأسيس النشأة، المركب الثقافي العربي، بيروت الدار البيضاء، 2003.

10. عبد الله إبراهيم، المرجع السابق، ص: 107.

11. عبد الله إبراهيم، المرجع السابق، ص: 113.

12. محمد يوسف نجم، القصة في الأدب العربي، ص: 12-13، نقل عن عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة، المرجع السابق، ص: 113.

سطيح» و«محمد جمعة في «ليالي الروح الحائر» وغير ذلك.¹³

1.2.2. وإذا كانت هيمنة هذه النثرة التراثية على النثرية الساعية وقتها إلى تحديد أساليب الكتابة العربية - عبر الكتابة الصحفية - قد أتاحت كتابات سردية حديثة تستلزم الأشكال السردية التراثية (الحديث، المقامة) وتجذرها أشكالاً سردية حديثة؛ فإن تراجع هذه النثرية إلى موقع خلفية من الإبداع العربي، وتنامي سطوة النثرية العربية الحديثة؛ هو الذي سيؤدي إلى الانكماش التدريجي لهذا التموزج من الكتابة السردية، وذلك قبل أن يتقلص دوره «ويتحلل ويلاشى في النصف الأول من القرن العشرين». ¹⁴ في وجه ظهور أشكال الكتابة السردية الحديثة؛ وخاصة منها الرواية. ومن هنا يمكن القول إن ظهور الرواية العربية الحديثة لم يكن مرتبًا بتحولات اجتماعية وفكيرية عرفتها المجتمعات العربية في المشرق مطلع القرن العشرين فحسب، بل هو ما يفسر - في نظرنا - هذا الارتباط في تاريخ السردية العربية، تحولاً في النثرية التراثية على النثرية العربية التراثية؛ وهي الهيمنة التي ستتراجع معها النثرية التراثية وأشكال كتابتها الإبداعية، اقتضتها مقامات القول الإبداعي الجديد، نتيجة لهيمنة النثرية العربية الحديثة على النثرية العربية التراثية؛ وهي الهيمنة التي ستتراجع معها النثرية التراثية وأشكال كتابتها السردية إلى موقع خلفية من الإبداع العربي؛ ¹⁵ تاركة لأشكال النثرية العربية الحديثة سلطة الفعل في الكتابة السردية العربية الحديثة؛ وهي السلطة التي بلغت كبرى درجات تجلّيها بظهور الرواية العربية الحديثة مع جيل الرواد الأول، قبل أن تتجذر في الإبداع العربي بكتابية الرواية التاريخية، فالاجتماعية والقديمة، فالذهنية مع نجيب محفوظ وجبله من الكتاب الروائيين العرب؛ حيث أخذت مستويات من السردية أغنت الكتابة الروائية العربية ونوعت من مصادر إبداعها مع منتصف السبعينيات من القرن العشرين.



الكتابة الروائية العربية، فعلاً إبداعيا اعتباطياً؛ وإنما كان إحياء لتجربة من الكتابة ولدها تشرُّب الخطاب الروائي للأنساق اللسانية التراثية وتجذره في منابت قولها، وتعالقه مع النصوص الخلفية المشكّلة لها. فكان من نتائج ذلك عودة الأشكال السردية التراثية للظهور؛ باعتبارها أشكالاً تجريبية تفتح الإبداع الروائي العربي على آفاق من الإبداع وجماليات من الكتابة ممتعة ومؤنسة، تكسر الدورة التقليدية للرواية العربية، التي كرسها الرواية الواقعية مع نجيب محفوظ من جهة، وتتأصل تجربة تحديد الكتابة الروائية العربية في خيار العودة إلى التراث مع جمال الغيطاني وأصحابها، وليس إلى منجزات رواية الحداثة الأوروبية كما ذهب إلى ذلك أصحاب الخيال الثاني في تحديد سردية مع صنع الله إبراهيم ورفاقه.

النثرية التراثية وسردية الخطاب: رواية التراث وتأصيل الكيان

4.2. وسيتمكن خيار العودة إلى التراث روائيي الحداثة من تأصيل كيان السردية العربية في منابت القول العربي وأشكال كتابته، باتكاء هؤلاء في دورة ثانية من الكتابة السردية التراثية على النثرية التراثية واحتضانها لجماليات نصوصها وتعالقها مع أشكال كتابتها، مما جذر الكتابة الروائية العربية في التراث السردي العربي، ومد السردية العربية بمنبع إبداعي شروب وطاقة سردية ممتعة ومؤنسة، خلقت وعيًا روائيًا لدى روائيي ما بعد هزيمة 1967، ومكتنthem من أدوات كتابة جديدة، ستسهم في إدخال الرواية العربية دورة الحداثة،

2.2.2. والذي يبدو لنا أن ظهور الرواية العربية الحديثة وتجذر شكلها السردي في الكتابة العربية الحديثة كان مرتبًا بتغيير مكونات النثرية العربية ونظام تبادل الواقع فيها؛ فقد لاحظنا أن هيمنة النثرية العربية التراثية - نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين - على جهود تحديد النثرية العربية أدى إلى ظهور أشكال السرد التراثي في الكتابة العربية، وهيمنة سردية خطابها؛ وهي السلطة التي ستتراجع ببلغ جهود التحديد أوج مدها في الربع الأول من القرن العشرين؛ وبهيمنة النثرية العربية الحديثة على النثرية العربية التراثية. وبذا يمكن القول إن ظهور الرواية العربية كان تحولاً في النثرية العربية، ونظام تبادل الواقع فيها؛ وهو ما يفسر - في نظرنا - هذا الارتباط في تاريخ السردية العربية، بين هيمنة نثرية وترابع أخرى وظهور أشكال سردية واحتفاء أو تراجع أخرى؛ السمة الجمالية التي لازمت الخطاب السردي العربي، وحددت إلى حد كبير، تاريخ ظهور أشكاله أو احتفائه وترابع سلطتها، في السرد العربي الحديث.

النثرية التراثية والدورة الثانية من الكتابة الروائية

3.2. فالمتتبع لتاريخ السرد العربي المعاصر يلحظ بوضوح تلك العودة القوية لظهور الأشكال السردية التراثية، بفعل احتضان خطاب الرواية العربية لأنساقها السردية مع بداية سبعينيات القرن العشرين، فيما عرف برواية التراث. ولم يكن خيار العودة إلى كتابة الأشكال التراثية في دورة ثانية من

13 عبد الله إبراهيم، المرجع السابق، ص: 114.

14 عبد الله إبراهيم، المسودة العربية الحديثة، مرجع سابق، ص: 107.

15 كشفنا عن أسباب عراج النثرية التراثية والاحتفاء التراثي لأشكال كتابتها الإبداعية في البحث الذي شاركا به في: مؤتمر الرواية العربية الأولى بالقاهرة، فبراير 1998، المعنون بـ«الأشكال التراثية والنثرية التراثية، مساهمة في الوعي بالعلاقة (النص الموروثي نموذجاً)» والذي ظهر في كتاب ملخصات أعمال المؤتمر وكلوك المترجمة، سقط من مدونة بحوث المؤتمر المقدمة للنشر في مجلة فصلية بجامعة فلسطين بجامعة فلسطين.

العدد: 56 (يوليو 2021)

وكسر حلقة الدورة التقليدية للرواية العربية، التي امتدت زهاء خمسين سنة.

1.4.2. وسيأخذ مشروع «تأصيل الكيان» مع روائيي رواية التراث مظهراً إبداعياً بارزاً، ترك أثره في السردية العربية، وخلق إمكانات إبداعية جديدة لروائيي التراث. تجلّى هذا المظهر في فعل إبداعي يبرز مع كتاب الأشكال السردية التراثية الجدد، الذين جذروا الكتابة الروائية في سردية جديدة، يأخذ معها الخطاب الروائي العربي سردية تراثية تستند في النصوص الخلفية المشكّلة لخطابها إلى رؤية إبداعية جديدة وأدوات كتابة مختلفة عن الطريقة التي بها كتب المؤيلحي «الحديث» وحافظ جمعة «الليالي» في دورة كتابة الأشكال السردية التراثية الأولى مطلع القرن العشرين. فقد كتب المؤيلحي شكل «ال الحديث» ولكن بجماليات شكل «المقامة» وسردية خطابها، فلم يكن «حدث ابن هشام» حيث المتكلم سارد ينتج خطاباً سردياً ضمن مقامات قول «شكل الحديث التراثي» وإنما هو حديث السادس المتلهم في مقامات بديع الزمان الهمذاني، المنتج لخطاب سردي الهيمنة فيه لسلطة نص المقامة ولمقامات قوله.

2.4.2. هذا التنازع بين شكل «الحديث» و«المقامة» الحاصل بغياب سلطة خطاب «الحديث» وحضور سردية «المقامة» هو ما جعلنا نعتبر أن ملامح أدبية الشكل السردي التراثي مع كتاب الجيل الأول، لم تتضح معالمها، وظلت سردية خطابه سردية بسيطة. وهو السمة السردية التي ستختفي مع كتاب الجيل الثاني من روائيي رواية التراث. وستتضح ملامح أدبية «ال الحديث» مع محمود المسعودي في «حدث أبو هريرة قال» وتبرز طرائق من اشتغال مكونات الخطاب السردي (الزمن، الصيغة، التبيير، المتخيل ومستويات اللغة) هي أصدق بسردية شكل «ال الحديث» وما تأتي الحسن فيه. على العكس مما لاحظنا في «حدث عيسى بن هشام» للمويلي، التي ظلت ضامرة نتيجة، هيمنة سردية «المقامة» وما تأتي الحسن فيها، ولعل هذا التنازع في شكل الكتابة وسلطة الخطاب، الواقع

بين الشكلين هو الذي جعل بعضهم يصنف «حديث عيسى بن هشام» بأنه مقامة وليس حديثاً.

3.4.2. وبكتابه «الحديث» مع المسعودي سيدشن كتاب الجيل الثاني من كتاب الأشكال السردية التراثية مساحة من الكتابة السردية، أكثر ارتباطاً بأشكال الكتابة السردية التراثية، وسنشهد ظهور سرود قصيرة وطويلة متعلقة مع هذه الأشكال، مثل «المقامة الرملية» لهشام غرابية، و«الزياني بربرات» و«متون الأهرام» في الصياغة والوجود» و«متون الأهرام» لجمال الغيطاني، وغيرهما، من الروائيين الذين يمموا شطر التراث السردي العربي؛ وذلك لما عرفته الدورة الثانية من كتابة الأشكال السردية التراثية من تجدّر في تقاليد الكتابة السردية العربية، ستبرز معها أشكال سردية تراثية جديدة متهمضة عن أشكال كتابة فقهية وصوفية، ظهرت الفقهية منها بكتابه «الفتاوى» و«الأقواف» في موريتانيا، والصوفية مع شكل «الكرامة» في نص «من كرامات الشيخ» للروائي الموريتاني محمد ولد تنا، و«كتاب التجليات» للغيطاني، والتاريخية منها كنص «الزياني بربرات» للغيطاني.

3: تراكيب: ظهور الشكل السردي بروز لنثرية عليا من القول وأنحسار لنثرية أخرى

3.1.3. نخلص مما سبق إلى أن ظهور الأشكال السردية عامة - والرواية منها خاصة - يأتي وليد تراكم طبقات القول المعبّرة عن «الاجتماعي» والمحلية «للثقافي» في المحافل اللغوية الحاضنة لها في مجتمع من المجتمعات، وليس نتاج تحول في طبقات المجتمع، المؤدية إلى بروز الطبقة الوسطى منها، باعتبارها الحاملة للوعي، والمعبّرة عن الرؤية للعالم على نحو ما تؤسس عليه نظرية سوسنولوجيا الأدب أطروحتها النقدية في تفسيرها لظهور الرواية في المجتمعات الحديثة؛ بل هي نتيجة لتحولات لغوية تعرفها المحافل اللغوية والحواضن التواصلية لمجتمع من المجتمعات أثناء تعبيرها

عن الاجتماعي والثقافي لذلك المجتمع. ولذا اعتبرت السردية التارikhية، في نقضها لأطروحة سوسنولوجيا الأدب، المحافل اللغوية الحاضنة اللغوية لمنابت الخطابات الأدبية، التي ينبغي الرجوع إليها للبحث عن العوامل التي أدت إلى ظهور الأشكال السردية. فالبحث عن ظهور أي شكل سردي (الرواية هنا) في أدب من الأدب هو بحث في لحظة ما قبل ظهوره، بحث في التحولات التراثية المولدة لطبقات النثر، التي من منابت قولها ينشأ خطاب السرد وعنها تتولد أشكاله السردية.

1.1.3. فتحولات المجتمع وتغير الوعي فيه، هي تحولات في اللغة والخطاب والخبرة اللسانية، وتغيرات في طبقات القول ونثرياتها، قبل أن تكون تحولات في طبقات المجتمع؛ فأوضاع التخاطب في المجتمعات هي التي تنشأ عنها أدبية قولها و«نظرية كلامها» بتجلياتها وأشكالها المختلف. ظهور الرواية في مجتمع من المجتمعات ليس حدثاً أدبياً اجتماعياً مرتبطاً بظهور الطبقة الوسطى وقدرتها على الفعل، على نحو ما قال به أصحاب سوسنولوجيا الأدب؛ وإنما هو حدث أدبي لغوی مرتبط بظهور الطبقة العليا من الكلام فيه، وقدرتها على إنتاج نثرية أدبية مولدة لجماليات من القول الجميل، مناهضة لبلاغة القول البليغ في طبقة الكلام الوسطى، ومتعلالية على مهارة القول الفاره في طبقة الكلام الدنيا.

2.1.3. والرواية بذلك شكل أدبي ينتجه خطاب سردي، ينشأ في محافل تواصلية ومحافل لغوية، تولده أوضاع تُخاطب في طبقات قول ثلاثة (تواصلية، بلاغية، وأدبية). وهي طبقات ذات نثريات متعددة ومتعددة منتجة لأنشئ تعبيرية تواصلية (الحكم، الأمثال) وأشكال تعبيرية بلاغية (الخطبة، المقالة، الخطورة، الحديث، الافتتاحية...) وأشكال أدبية (القصيدة، الرواية، المسرحية) محققة لشعرية الأنواع الأدبية (الشعر، السرد، والمسرح) في تنوعها وتعددتها.